محمد بن عبد الملك الزيات

عصره:

بالقوة التي أورثها الرشيد والمأمون للملك العباسي، عاش العباسيون أيام المعتصم والواثق دون أن يشهدوا ضعفًا محسوسًا في دولتهم. عاشروا بقوة التسلسل، لا بقوة هذين الخليفتين، وكانا يستران نقصهما بمن يعهدان إليهم تدبير الملك من الرجال وإطلاق أيديهم في الحكم، ولم تظهر في الدولة آثار الخطأ الذي ارتكبه المعتصم بتقديم الأتراك، والقضاء على قيادات العرب إلا في أيام المتوكل، ففي عهده بدأ ضعف الدولة، وزاده ضعف المتوكل في التدبير والسياسة، حتى قُتل، فكان أول خليفة قُتل جهرة من خلفاء بني العباس، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين.

نفذ المعتصم ثم الواثق خطط المأمون في تدبير الملك، فاعتمد المعتصم على من اعتمد عليهم أخوه من الرجال، وجرى ابنه الواثق من بعده على خطة المأمون والمعتصم في القول بخلق القرآن، وحمل الأمة على اعتقاد ذلك، فتألم الناس من هذا التحكم، وحنقوا على المعتزلة أصل هذه المحنة، وكان للمعتزلة السلطان الأكبر في خلافة المأمون.

بيد أن المأمون لم يكن بالخليفة المستضعف؛ والمعتصم، وإن لم يصدر عن رأيه الخاص، فقد كان على جانب من حسن الخلق والكرم، وكذلك ابنه الواثق، وكان الواثق يحاسن العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة؛ ويشبه الواثق عمه المأمون في كثير من أخلاقه؛ وكان المعتصم قليل البضاعة

من الأدب، وابنه على جانب عظيم منه. وفي أيام المعتصم كان الروم من جيوشه في أمر عظيم، على نحو ما كانوا في عهد أبيه الرشيد، وفي أيامه قوي أمر بابك الخُرَّمي في أذربيجان، يريد أن يقيم ملة المجوس، فأخرب البلاد، وقتل عشرات الألوف من الجند والرعية، حتى قتل بعد أن أتعب الخلافة عشرين سنة.

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية، وكان الأمويون في الأندلس يعملون على توطيد أمرهم، وإنشاء حضارتهم؛ وفي هذا العهد كان عبد الرحمن الثاني حامي الآداب والعلوم، ومن أعظم خلفاء بني أمية في المغرب؛ وكان ببو الأغلب في إفريقية، يرضون الخليفة العباسي ببعض الخراج، ويدعون له على المنابر، ويصدرون في المسائل الكبرى عن رأيه في الجملة، ويتولون استصفاء جزيرة صقلية؛ وكان ما وراء ذلك من بلاد الغرب الأقصى في أيدي الأدارسة العلويين يتخبطون ولا يستطيعون قيام مملكة قوية.

وظل العلم الديني والمدني سائرًا في طريقه التي أخذ بها في عهد الرشيد وابنه المأمون، ولكن بمعزل عن تنشيط المعتصم والواثق، وقلما كان هذان الخليفتان يشاركان أهل العلم، أو يعطفان عليهم العطف المطلوب، كفعل من كان قبلهما؛ وإذا لم يقع من هذين الخليفتين شيء يستحق أن يسمى تنشيطًا للآداب، فإنهما لم يعملا ما من شأنه أن يثبط العاملين عن عملهم، فكأن دورهما أول مرحلة إلى برزخ جديد، يقلب الأمة بين القوة والضعف. وبعد عهد المتوكل انتهت أيام العز في بني العباس، وفرح الجمهور لأول أمره بأنه أعاد السنَّة، وأبطل القول بخلق القرآن، وعندئذ بدأ اضطهاد الناس والحكام سرًّا لجماعات المعتزلة بعد أن غَلبوا على ثلاثة خلفاء.

نشأته ووزارته:

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة، عُرف بابن الزيات؛ لأن جده -على ما قيل- كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فغلب هذا التلقيب على بيته، وكان جده أبان من أهل قرية الدسكرة مقابل جُبَّل من عمل بغداد، فهو عربي بأصوله، وُلد ونشأ في بغداد، ولا يُعرف شيءٌ عن أوليته، ولا عمن أخذ العلم في صباه، وغاية ما أُثر عنه أنه أُولع بالأدب، وكان أبوه من مياسير تجار الكرخ، يحثه على التجارة وملازمتها، فيمتنع ويأبى إلا الكتابة وطلبها، ويخاطب الكتاب، ويلازم الدواوين، فقال له ذات يوم: والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّنك، لأنك تدع عاجل المنفعة، وما أنت فيه مكفي، ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه. فقال: والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه، أأنا أم أنت؛ ثم شخص إلى الفضل بن سهل بفم الصلح، فامتدحه بقصيدة، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فعاد بها إلى أبيه، فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه؛ وكان من جملة أبيات تلك القصيدة:

إني شعرت فلم أمدح سواك ولم ... أُعْمل إلى غيرك الإدلاج[1] والبُكرا
ما كان ذلك إلا أنني رجل ... لا أقرب الورد حتى أعرف الصدرا
لم أمتدحك رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسني التحجيل والغررا

فابن الزيات إذًا من بيت اغتنى في التجارة، وسمت نفس محمد إلى العلا، فعدَّ مفخرة أهله، لما وجه وجهته إلى الآداب، وسار في طريق سعادته بحسب ميله

(١) الدلج -محركة- والدلجة -بالضم والفتح-: السير من أول الليل، وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره، فادلجوا بالتشديد. والبكرة -بالضم-: الغدوة كالبكرة -محركة- اسمها الإبكار. وشعر كنصر وكرم شعرًا وشعرًا: قاله. أو شعر: قاله، وشعر: أجاده.

واستعداده، وسما به شوق إلى المجد فدخل حظيرته من أبوابه، واتخذ لنجاحه الأسباب فتعلم، ولابس أرباب الكتابة في أعظم دواوين الدولة في عهد المأمون، فرأى -ولا شك- كبار الكتاب كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون؛ هذا إن لم يكن قد أخذ عنهم. فمدرسته الأولى في الواقع هي ذاك الديوان الذي اختلف إليه في صباه، وعرف فيه معاملات الحكومة وأصولها في سياسة الملك، وكتب كتبًا، وشاهد الكُتَّاب يكتبون، وأرهف حسه، وهذب نفسه، منذ ألقى في روعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن في الدولة.

كان ابن الزيات جهميًّا، يقول بمذهب جهم بن صفوان، وهو يوافق المعتزلة في مسائل كثيرة، ومنها القول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة، وكان ممدوحه الأول الفضل بن سهل يتشيع، وهو من أعاظم الفرس أدبًا وفضلًا، وهو ابن الوزير الحسن بن سهل، والد بوران زوج المأمون. وتصرفت الأقدار تصرفها، وأبى فضل أبي جعفر إلا أن يظهر ظهورًا رائعًا خرج به من خمول الذكر إلى نباهة القدر. اتفق أن ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال، قرأه عليه وزيره أحمد بن عمار، وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم: ما الكلأ؟ فقال: لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب. فقال المعتصم: «خليفة أُمي ووزير عامي»، وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال: أبصروا مَن بالباب من الكُتَّاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات، فأدخلوه إليه فقال له: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان طريًّا فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله، وتجلى له في كل موطن أنه قريع دهره في قيام الملك، وأنه حاضر البديهة، واسع المعرفة، جم الأدب. سأل المعتصم مرة جماعة من خواصه عن معنى سبب تسمية طاهر ذا اليمينين فلم يعلموا. فقال محمد بن عبد الملك: ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده من رزق في الدولة، واستحقاق ما له في دولة المأمون.

وكان ابن الزيات يتولى قهرمة[١] الدار، ويشرف على مطبخ الخليفة، ويقف في الدار وعليه دُرَّاعة سوداء. يقول الطبري: إن محمد بن عبد الملك الزيات كان يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل الفساطيط وآلة الجمازات[٢]، ويكتب على ذلك: «مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك»، وكان يلبس إذا حضر الدار دُرّاعة سوداء وسيفًا بحمائل، فقال له الفضل بن مروان وزير المعتصم قبل أحمد بن عمار: إنما أنت تاجر فما لك وللسواد والسيف؟ فترك ذلك محمد، ولما تركه أخذه الفصل برفع حسابه إلى دُلَيْل بن يعقوب النصراني، فرفعه فأحسن دُلَيْل في أمره ولم يرزأه شيئًا. وكان الفضل بن مروان نصراني الأصل (قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء) حاول أن يسقط محمد بن عبد الملك، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم، ولا يحب أن يشاهده في دار الخلافة، ولا أن يخالط أهلها، ويعرف اسمه ورسمه، فأبت الأقدار إلا رفعه، وصادر المعتصم الفضل بن مروان على ألفي ألف دينار وأبقى على حياته، ورفعت إلى الفضل قصص العامة، فرأى في جملتها رقعة مكتوبًا فيها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم التقييد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالمًا ... ستودى[٣] كما أودى الثلاثة من قبل

أراد بالفضول الثلاثة: الفضل بن يحيى البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل، وهم ثلاثة وزراء نكبوا وقتلوا على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم.

---

(١) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده. والقهرمان من أمناء الملك وخاصته، وفي الحديث: كتب إلى قهرمانه، هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس. «اللسان».

(٢) الجمازة: دراعة من صوف بضم الدال، والدراعة: ثوب من صوف.

(٣) أودى: هلك. وبه الموت: ذهب.

تولى الوزارة أحمد بن عمار، ولما عرف المعتصم غَناء ابن الزيات، وعجز ابن عمار وجهله، قال له المعتصم: انظر أنت في الدواوين، وهذا يعرض عليَّ الكتب، ثم استوزر ابن عبد الملك وصرف ابن عمار صرفًا جميلًا، فأصبح ابن الزيات وزيرًا كاتبًا، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرّا، من الجانبين الشرقي والغربي. أحيا المعتصم بذلك سُنَّة أخيه بتقليده الوزارة إلى كاتب، وكان لا يتولاها في عهد أخيه إلا من جمع أسباب الفضل، وذهب في الأدب كل مذهب.

لا نعلم سنة مولد أبي جعفر، ولا نستطيع تقدير سنه يوم تولى الوزارة، وربما كان حوالي الأربعين، وقد حكّمه المعتصم وبسط يده، فارتقى من ابن تاجر يعد الدوانيق، إلى أرقى رتب الخلافة يصرف الأمور كما يرى. ولما تولى الوزارة (اشترط أن لا يلبس القَباء، وأن يلبس الدُّراعة، ويتقلد عليها سيفًا بحمائل، فأُجيب إلى ذلك)، لبس ما كان يحب أن يلبس وهو ابن تاجر يبيع من القصر بضاعته، ويدل بما ورث عن أبيه من عادات التجار أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق[1]. وكان يقول: قد صنع إليَّ الخليفة صنيعًا تفرد بها: نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة، وأحرز ابن الزيات نعمة كما قال له أحدهم بحقها، واستوجبها بما فيه من أسبابها.

علمه وسياسته:

يقول إبراهيم بن المدّبر الوزير: إن محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهنًا، وأرقهم طبعًا، وأصدقهم حسًّا، وأرشقهم قلمًا، وأملحهم إشارة، إذا قال أصاب، وإذا كتب أبلغ، وإذا شعر أحسن، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة. وما زاد اليعقوبي والمسعودي -وهما المؤرخان القريبان من عهده- على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة كما يوصف آحاد الكُتَّاب لا كما يوصف من كان (واحدًا في صناعته، ومفردًا في

(١) التدنيق: الاستقصاء وإدامة النظر إلى الشيء.

براعته). وقال فيه من لا غرض له: إنه كان شاعرًا يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب، وكان يعدّ من علماء النحو واللغة، وهو فتى لم تَعلُ به السن حتى إن أبا عثمان المازني، لما كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في النحو إذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب -يعني: ابن الزيات- فاسألوه، واعرفوا جوابه، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان.

لا جرم أن اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية، والناس في كل زمان يرهبون القريب من السلطان، ويغتابونه في السر، ويستثقلون ظله أو يعادونه لعدة أسباب؛ فابن الزيات كان يدعو الأمة إلى حرمة القوانين، وكثير في الناس من يحبون أبدًا الخروج عليها، ويمقتون من يدعو إليها ويحنقون عليه، ومنهم الحُسَّاد يشق عليهم الإقرار بفضائل أهل الفضل، ومنهم أعداء عزه وأعداء مذهبه. ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور إلى الوصول إليه، ومنهم من أبغضوه لمجرد كونه جهميًّا كالشيعيَّين اليعقوبي والمسعودي، ولو كان يذهب في الإمامة مذهبهما لسكتا عن كثير من مساوئه، ولجملاه بصفات هو منها أعرى من مغزل. ومن تولى وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة، لخليفتين بدون انفصال، وتولاها للثالث أيضًا، على ما لم يكن يعهد له نظير في دولة من الدول، لا يتوقع من الناس كافة أن يجمعوا على حبه. ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم، ومن أجلها عراهم أرباب اللؤم من محامدهم.

نسبوا إلى ابن الزيات أنه كان يقول إذا استرحمه أحد ممن يعذبهم: «الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المنة»، فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول. ولا دليل على أنه قال هذا القول، ويرد على الخاطر أن أعداءه اخترعوه من عند أنفسهم لينالوا منه

عند الخاصة والعامة. وكم من كِتاب ألفه مؤلفه فنسبه إلى غيره ليسقطه، وكم من قصيدة قالها رجل فعزاها إلى آخر للوقيعة به، وكأي من حديث وضعه واضعه على لسان من لم يخطر له هذا الكلام المزور ببال.

وضعوا حكايات أسندوها إلى أشخاص في جمل مزوقة قد تستغوي القارئ الغر، أوردوها في باب الملح والنوادر، يشيرون بها إلى لؤم ابن الزيات وتجبيهه الناس؛ زعموا أنه بعيد عن إسداء المعروف، يتجافى عن نفع غيره، وما حملوا عليه ولفقوا من الأحاديث المسقطة له إلا لأنه وصل إلى المعالي عن جدارة، وكم سعى غيره ليبلغوا منزلته فخابوا وما أفلحوا، وعَظُم ما رمى به من تلفيق منافسيه وقاصديه؛ ولن يرضى العامة والحامة إلا إذا عملَ لهم رب الأمر والنهي المعقول وغير المعقول، وصاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها، ومن كان على شيء من الأخلاق لا يستقيم له حال مع الغوغاء، ومن أراد أن يصدع بالحق مع الكبير والصغير مقته كل من لم يظفر بطلبته، ويعز في الطبقات من تصبر نفسه على مر الحق، وحرارة الإصلاح والتقويم.

ثم إن من كان في مثل هذه الصدارة يستحيل عليه، وهو بشر يخطئ ويصيب، أن تكون أعماله كلها مسددة، والنقص من خلق الآدميين في الجملة، مثال من خطئه في اجتهاده؛ ولعل بعض العارفين يعدونه صوابًا: روى الراوون، أن المعتصم كان أمر بأن يعطى الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أمره، ويصلح بها ما يحتاج إلى إصلاحه، فدافعه بذلك مدافعة متصلة أحوجته إلى شكايته إلى المعتصم، فأنكر عليه تأخر المال. فقال: يا أمير المؤمنين، العدل أولى بك وأشبه بقولك وفعلك، ولك عدة أولاد، أنت في أمرهم بين خلتين: إما أن تسوي بينهم في العطية فتجحف ببيت المال، وإما أن تخص بعضهم فتحيف على الباقين. فقال: قد رهنت لساني فما

تصنع؟ قال: تأمر لباقي ولدك بإقطاعات وصلات، وتطلق لهارون صدرًا من المال فأدافعه بباقيه، ويتسع الأمر قليلًا، وتُدَبّر الأمر بعد لك بما تراه، فقال له: وفقك الله، فما زلت أعرف الصواب في مشورتك.

وتأدى الخبر إلى هارون، فحلف بعتق عبيده ومماليكه، وبحبس عدة خيل، ووقف عدة ضياع، وصدقة مال جليل، لئن ظفر بمحمد ليقتلنه، وكتب اليمين بخطه، وجعلها في درج وأودعها دايته، ومرت مدة وأفضى الأمر إلى هارون، وكان ذا أناة وعقل، وكره أن يعاجله، فيقول الناس بادر بشفاء غيظه، ثم عزم على الإيقاع به، فتقدم بأن يُجمع له من وجوه الكُتّاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة فجمعوا، ودعا بواحد منهم وقال له: اكتب كذا، في أمر رسمه له، فاعتزل وكتب وعرض الكتاب عليه فلم يرضه، حتى امتحن الجميع، فأمر صاحبه فقال: أدخل مَن المُلكُ مضطر إليه، محمد بن عبد الملك، فجيء به وهو واجم مضطرب. فلما وقف قال له: اكتب إلى صاحب خراسان في كذا وكذا. فأخرج من كمه نصفًا، ومن خفه دواة، وابتدأ يكتب بين يديه، حتى فرغ من الكتاب، ثم أخرج خريطة فيها حصى فأترب الكتاب وأصلحه، وتقدم فناوله إياه، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه، فأعجب به جدًا وقال: اختمه. فأخرج من الخريطة طينًا فوضعه عليه وتناوله، فختمه وأنفذه من ساعته. فقال الواثق لخادم له: امض إلى دايتي وقل لها: توجه إليَّ بالدُّرج الفلاني، فمضى الخادم فجاء به، فأخرج الرقعة فدفعها إليه. فقال: يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك إن وفيت بيمينك فأنت محكّم، وإن كفَّرت وصفحت كان أشبه بك، قال: لا والله ما يمنعني من الوفاء بيميني إلا النفاسة على أن يخلو الملك من مثلك، وأمر بعتق من حلف بعتقه، ووقف الضياع وحبس الخيل وأنفذ صدقة المال؛ وظل ابن الزيات وزيرًا للواثق كما كان في عهد أبيه. وقيل: إن موضوع الكتاب الذي اقترحه الواثق عليه كان يتعلق بأمر البيعة، فكتبوا فلم يرضَ بما كتبوه، فكتب

ابن الزيات نسخة رضيها، وأمر بتحرير المكاتبات عليها، وأن الواثق قال: عن المال والفدية عن اليمين عوض، وليس عن الملك وابن الزيات عوض.

إن السبب الذي غضب له الواثق أيام ولايته العهد، من تضييق ابن الزيات عليه ثم عفوه عنه لما أفضت إليه الخلافة، يدل على وفرة عقل الواثق. أما معاملة محمد بن عبد الملك الزيات قبل الخلافة لولي عهدها فما كانت غير محض اجتهاد، لأنه لا يريد استرسال ولي العهد في طلباته من مال الدولة بدون حساب، ويود أن يعرفه قدر المال، وأن يعدل الخليفة بين أولاده، حتى لا تتأثر أنفسهم من معاملة شاذة، لا يرون -ولو في باطنهم- أنها تمت إلى الإنصاف بسبب. وأدرك الواثق بعقله الراجح أن في قتل مثل هذا الرجل العظيم لشفاء غضب، قد يكون سكن بمرور الزمن، خسارة على الدولة لا تعوض، فما كل دهر ينبغ مثل ابن الزيات، وما كل حين يتهيأ للخليفة رجل مجرب مثله، ومن أخلص لسيده الأول كان حريًّا أن يخلص لسيده الثاني، والدين النصيحة.

وعلل صاحب النشوار غضب الواثق على ابن الزيات بما كان محمد بن عبد الملك يعامله به في أيام أبيه؛ فمن ذلك أن المعلم شكا إلى المعتصم أن الواثق لا يتعلم، فإذا طالبه بذلك شتمه ووثب عليه، فأمر المعتصم محمدًا بأن يضرب الواثق أربع مقارع، فخرج محمد واستدعى الواثق، وضربه ثلاث عشرة مقرعة حتى مرض، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك، وحلف للواثق أنه ما أمر محمدًا إلا أن يضربه أربع مقارع، فأخفاها في نفسه، فكان يبغضه، وعلم محمد بذلك فكان يقصده في ضياعه وأملاكه لما ترعرع وصار أميرًا، فوقع المعتصم يوما أن يُقطع الواثق ما ارتفاعه ألف ألف دينار، فمحاها محمد وكتب (ما قيمته ألف ألف درهم) فلما دخل إليه الخادم وعرفه ما عمله محمد وثب إلى أبيه وعرفه ذلك، وعرض التوقيع عليه، فقال له

المعتصم: ما أُغير ما وقعت به، وما أرى في التوقيع إصلاحًا، وكان محمد قد أجاد محوه، وعلم المعتصم أن رأي محمد في الاقتصاد أصلح، فبطل ما كان يريده الواثق وانصرف، فقال للخادم: قد تم عليَّ من هذا الكلب كل مكروه؛ فإن أفضت الخلافة إليَّ فقتلني الله إن لم أقتله. ثم قال له: أنت خادمي وثقتي، فإن أفضى هذا الأمر إليَّ فقاتله ساعة أخاطب بالخلافة ولا تشاورني، وجئني برأسه. قال: فمضت الأيام وتقلد الواثق، فحضر الدار في أول يوم محمد بن عبد الملك مع الكُتَّاب، فتقدم الواثق إلى الكتَّاب دونه بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم وتقلده الخلافة، فكتبوا بأسرهم، وعرضوا ذلك عليه فلم يرضه، فقال لمحمد: اكتب أنت، فكتب في الحال بلا نسخة كتابًا حسنًا، وعرضه فاستحسنه، وأمر بتحرير الكتب عليه، ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة، وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه. قال الخادم: فعجبت من ذلك وقلت: تُراه أنسى ما كان أمرني به؟ لِمَ لا استأذنه في ذلك وأذكره به؟ فتقدمت إليه لما خلا وأذكرته الحديث واستأذنته فقال: «ويحك، السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد إلى السلطان، دعه».

عن محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب قال: حدثني قريش بن أنس عن أبيه قال: دخلت على الواثق فقال لي: يا أبا قريش أخرج رقعة من تحت المصلى؛ فمددت يدي فأخرجت الرقعة وقرأتها وقلت: يا أمير المؤمنين رقعة حسنة، أولها تشوق، وأوسطها استعتاب، وآخرها استبطاء. وإذا آخر الرقعة:

إن يكن حبلك من حبلي وهى ... فإلى شوقي يكون المنتهى

لم يذكرنيك خطب حادث ... إنما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك، فقال الواثق: ويلومني الناس على حب محمد بن عبد الملك؟

وبعد؛ فإن من أصعب ما أصيب به ابن الزيات عداوة أحمد بن أبي داود شريكه ومنافسه في سلطانه، وكان كصاحبه في العلم والأدب المثل الأعلى، جهمي الرأي مثله (مؤالفًا لأهل الأدب من أي بلد كانوا، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم)، وكان المأمون أوصى أخاه المعتصم به قائلا: «وأبو عبد الله أحمد بن أبي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك».

أمر الواثق أن لا يرى أحد من الناس محمد بن عبد الملك الوزير إلا قام له، فكان ابن أبي داود إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي، فقال ابن الزيات:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي ... وأراه يَنْسَك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة مشئومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

وقال ابن أبي داود: إني لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات في حاجة، كراهة أن أعلمه ذلك، ومخافة أن أعَلّمه التأني لها. وقد أثر لابن الزيات شعر كثير في هجو أحمد بن أبي داود، ومنه:

أبلغ دعي إياد إن مررت به ... قول امرئ ناصح لله والدين
لن تصلح الأرض ما أُسكنت ظاهرها ... ولا ترى العدل أو تلحق بأفشين
ما زلت تضمر للخذلان عن دخل ... في القلب منك لهذا الدين مكنون
وكنت في ذاك لما أن قصدت له ... كالعنز أن بحثت عن حد سكين
نحن الذين إذا عدَّ العفاف يُرى ... فينا العفاف ومأوى كل مسكين

وفي سنة (٢٢٩) نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة، فكشفوا وحبسوا وأقيموا للناس ولقوا كل جهد، ومن جملتهم صديقه إبراهيم بن العباس الصولي نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال، فاستهدف لهجائه؛ هكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجوّز لعامل أن يسرق، ولا للرعية أن تتلكأ في

أداءِ ما عليها، حتى ينتظم سير الأعمال. فهو رجل الدولة، خلق للحكم، وكأن معاني الحكم ممزوجة بلحمه ودمه، حتى لقد هُجِيَ بذلك، وكان من حقه أن يُمدح، فقال علي بن الجهم في وصف توقيعاته:

على ابن عبد الملك الزيات ... لَعائن الله موفرات

يرمي الدواوين بتوقيعات ... مطولات ومقصرات

أشبه شيء برقى الحيات

من عادة ابن الزيات المبالغة بتعظيم مظاهر الخلافة، ليقتدي به الناس، وينتظم الدولةَ الوقارُ والمهابة. كان إذا أراد أن يختم الكتاب دعا بدرج فيه الخاتم، فإذا جيء به وهو خاتم الملك، قام قائمًا فأخذه إجلالًا له، ثم جلس فأخرجه، وختم الكتاب به، ورده إلى الدرج وختم عليه. ومع هذا ربما كان يناقش الخليفة في بعض المشاكل إذا خلا به، وربما قام بأعمال يبتدعها، وبعض تراتيبه ما عُهد له مثيل قبله، كفعله لما عقد لإسحاق بن إبراهيم على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلي البصرة في دار الخلافة. قالوا: ولم يُذكر أن أحدًا عقد لأحد في دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات، كما لم يعهد أن أحدًا بدأ الكلام مع الخلفاء قبل أن يبدءوه غير أحمد بن أبي داود.

وابن الزيات سياسي ذاك العصر المنقطع القرين، كان يراعي عواطف العوام، ويحاذر مما يَهيجهم، ويقول: إرجاف العوام مقدمة الكون[1]. نظمه جحظة فقال:

أرى الإرجاف متصلًا بحال ... ولابس حليتي كبرٍ وتيه

وإرجاف العوام مقدمات ... لأمر كائن لا شك فيه

(١) الكون: الحدوث، كالكينونة، والكائنة: الحادثة، وفي رواية: مقدمة الفتنة.

ولابن الزيات عطف خاص على العلماء، وقد ترجموا له كتبًا مهمة في الطب وغيره، ومنهم حنين بن إسحاق، نقل له بعض الكتب إلى العربية، وكان الجاحظ منقطعًا إليه، قال ابن أبي أُصيبعة: وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار، ونقل باسمه عدة كتب، وكان أيضًا مما نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه، وجبرئيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع، وداود بن سرابيون، وسلمويه بن بنان، واليسع، وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري، وحبيش بن الحسن، ومما قال الجاحظ فيه:

بـــدا حـــين أثـــرى بإخوانـــه ... ففلّـــل مـــنهم شـــباة[1] العـــدم
وأبـــصر كيـــف انتقـــال الزمـــا ... ن فبـــادر بـــالعُرف قبـــل النـــدم

وقد مدحه أعاظم شعراء العصر، ومنهم أبو تمام، وصف قلمه بقوله:

لـــك القلـــم الأعـــلى الـــذي بـــشباته ... تُـــصاب مـــن الأمـــر الكُـــلى والمفاصـــل
لعـــاب الأفـــاعي القـــاتلات لعابـــه ... وأرْي الجنـــى اشـــتارته[2] أيـــد عواســـل
لـــه ريقـــة طـــلٌّ ولكـــن وقعهـــا ... بآثـــاره في الـــشرق والغـــرب وابـــل
فـــصيح إذا اســـتنطقته وهـــو راكـــب ... وأعجـــم إن خاطبتـــه وهـــو راجـــل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليـــه شـــعاب الفكـــر وهـــي حوافـــل
أطاعتـــه أطـــراف القنـــا وتقوضـــت ... لنجـــواه تقـــويض الخيـــام الجحافـــل
إذا اســـتغزر الـــذهن الـــذكي وأقبلـــت ... أعاليـــه في القرطـــاس وهـــي أســـافل
وقـــد رفدتـــه الخنـــصران ووســـدت ... ثـــلاث نواحيـــه الـــثلاث الأنامـــل
رأيـــت جلـــيلًا شـــأنه وهـــو مرهـــف ... ضـــني وســـمينًا خطبـــه وهـــو ناحـــل

(١) الشباة: حد كل شيء، وفلل: ثلم، والعدم بالضم وبضمتين وبالتحريك: الفقدان.
(٢) اشتارته: جنته، والأرْي: العسل، والجنى: كل ما يجنى.

ولهذه القصيدة قصة طريفة. قال ابن عبدوس: وجدت بخط أبي أحمد إسماعيل، حدثني محمد بن علي بن سعيد الطبري وأخوه إبراهيم بن علي وأمهما أخت محمد بن عبد الملك قالا: جاءنا حبيب بن أوس الطائي -يعني: أبا تمام- بقصيدته التي يقول فيها:

لـك القلـم الأعـلى الـذي بـشباته تُـصاب مـن الأمـر الكُـلى والمفاصـل

فسألنا أن نعرضها على محمد، وأن نتوخى بها وقتًا تكون نفسه طيبة فيه، فتوخينا ذلك الوقت وأوصلنا القصيدة، فقرأها من أولها وتوقف على أكثرها، ثم قال: الطائي جيد الشعر، إلا أنه يهجّن شعره بأنه يمتدح السوقة بما يمدح به الملوك، فيعطي السوقي أكثر من حقه، ويبخس الملك حقه إذا أعطى السوقي ما يعطيه، ثم قلب القرطاس وكتب شيئًا في ظهره، وقال: إذا جاء فادفعوه إليه، فقرأنا ما كتبه فإذا هو:

رأيتـك[1] سـمح البيـع والعِلـقُ إنـما يغـالَى بـه إن ضـنَّ بـالعلق بائعـه
وأحـرِ بمـن هانـت بـضائع مالـه لـدى البيـع يومًـا أن تبـور بـضائعه
هـو المـاء إن أجمعتـه طـاب ورده ويفـسده أن تـستباح شرائعـه

فلما جاء الطائي أعلمناه أنا قد أوصلنا شعره، فلم يشك أن معه جائزة، قال: فأين الجائزة؟ قلنا: خذها، ودفعنا القرطاس إليه، فلما قرأه قال: الله الله، قد وصيت من جائزته أن تكتما هذا الشعر، فإنه إن انتشر أفسد عليَّ عمود الصناعة، وكان

---

(١) في رواية البديعي:

رأيتـك سـمح البيـع سـهلًا وإنـما يغـالى إذا مـا ضـين بالـشيء بائعـه
فأمـا الـذي هانـت بـضائع بيعـه يوشـك أن تبقـى عليـه بـضائعه

لبخلاء الملوك مثله أعزه الله حجة. قلنا: وتهجوه؟ قال: ما أدير لساني بهجائه، ولكني استفدت مما وصلني به. فحكينا ذلك لمحمد فضحك وبعث إليه بمائتي دينار.

وفي رواية: أن محمد بن عبد الملك عاتب أبا تمام واحتج عليه بأنه مدح غيره، وأنه لو اقتصر عليه أغناه، وأن كثرة مدحه للناس زهدته فيه، وكتب إليه الأبيات الثلاثة، فكتب إليه أبو تمام:

أبا جعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعرًا ... أُساهل في بيعي له من أُبايعه
فقد كنتَ قبلي شاعرًا ذا رواية ... تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيرًا والوزارة مشرب ... يغَصُّ به بعد اللذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطًا ... رأيناه قد سُدَّت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ... ولله سيف لا تُفلُّ مقاطعه

ووصف البحتري إنشاء ابن الزيات بقوله:

لتفننت في الكتابة حتى ... عطَّل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ ... ـك امرؤٌ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزَّهَر الضا ... حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أُعيرت منه بطون القراطيـ ... ـس وما حُمِّلت ظهور البريد
مستميل سمعَ الطروبِ المغنَّى ... عن أغاني مُخارق وعبيد
حجج تُخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي ... هَجَّنت شعر جَرْوَلٍ ولبيد
حُزْن مستعمل الكلام اختيارًا ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك ... ن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ... ـض إذا رُحْن في الخطوط السود

وهذا أجمل وصف لبلاغة ابن الزيات في الكتابة، ولم يمدحه أبو تمام وأبو عبادة بشعره مع أنه كان أشعر كتّاب الدولة، ومدحاه بأظهر خصائصه.

حدَّث عبد الله بن العباس الربيعي قال: دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أغنيه وقد استغناني صوتًا فاستحسنه؛ فقال له محمد بن عبد الملك: هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه، واستحسانك له، واصطناعك إياه. فقال: أجل هذا مولاي وابن مولاي وابن مواليّ، لا يعرفون غير ذلك. فقال له: ليس كل مولى يا أمير المؤمنين بولي لمواليه، ولا كل مولى متجمل بولاية تجمع ما جمع عبد الله من ظرف وأدب، وصحة عقل، وجودة شعر. فقال له: صدقت يا محمد. فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لمحضره، فقلت له في أضعاف كلامي: وأفرط الوزير -أعزه الله- في وصفي وتقريظي، ولو كان عندي أيضًا شيء بعد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير، ومحله في هذا الباب المحل الرفيع المشهور. فقال: والله يا أخي لو عرفت مقدار شعرك وقولك:

يـــا شـــادنًا رام إذ مـــر في الـــسعانين[1] قـــتلي
يقـــول لي كيـــف أصبحـــت كيـــف يـــصبح مـــثلي

لما قلت هذا القول، والله لو لم يكن لك شعر في عمرك كله إلا قولك: «كيف يصبح مثلي» لكنت شاعرًا مجيدًا. روى هذا الأصفهاني. وقال أيضًا: أخبرني الصولي قال: حدثني عون بن محمد الكندي قال: حدثني عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع قال: وصفني محمد بن عبد الملك للمعتصم، وقال ما له نظير في ملاحة الشعر والغناء والعلم بأمور الملوك، فلقيته فشكرته وقلت: جعلت فداءك أتصف شعري وأنت أشعر الناس! ألست القائل:

---

(١) السعانين: عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس).

ألم تعجب لمكتئب حزين ... خدين صبابة وحليف صبر
يقول إذا سألت به بخير ... وكيف يكون مهجور بخير

قال: وأين هذا من قولك:

يقول لي كيف أصبحت ... ت كيف يصبح مثلي

ماءٌ ولا كصدَّاء، ومَرْعى ولا كالسعدان[1].

كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك: سروري -أعاذ الله حياتك- إذا رأيتك، كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك، كمودتي لك في مشهدك، وإني لصافي الأديم، غير نَغل ولا متغير، فامنحني من مودتك مزن لذاذة مشربك، وكن لي كأنا، فوالله ما عجت عن ناحيتك إلا وأنا محنيُّ الضلوع إليك، والسلام. فكتب إليه محمد: يا أخي ما زلت عن مودتك، ولا حلت عن أخوتك، ولا استبطأت نفسي لك، ولا استزدتها في محبتك، وإن شخصك لماثل نصب طرفي، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبي، ولله در الذي يقول:

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى ... لئن غبتَ عن عيني لما غبت عن قلبي
يذكرنيك الشوق حتى كأنني ... أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

هذا إجمال ما أمكن الوقوف عليه من حياة ابن الزيات وصفاته. بقي أن نقول ما انتهى إليه مصيره بعد أن خدم الدولة العباسية بروحه وقلبه وعينه؛ فقد ذكر أرباب السير أن المتوكل كان في نفسه شيء منه قبل أن يتولى الخلافة، لأن محمدًا كان أشار بتولية ولد الواثق بدلًا من أخيه المتوكل، وأشار ابن أبي داود بتولية المتوكل. وقيل: كان ابن الزيات يتجهم للمتوكل في أيام الواثق، ويغلظ عليه الكلام، فحقد

(١) صداء: اسم ركية عذبة الماء، وسعدان: نبت، وهو من أفضل مراعي الإبل، والجملة من أمثال العرب.

المتوكل عليه، فلما ولي الخلافة قتله مخدوعًا بالذين قالوا له: إنه كان صاحب أموال كثيرة، فلما قتله بعد أربعين يومًا من توليته لم يرَ جميع ما يملك من الضياع والأملاك والذخائر إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار، فندم على ذلك.

وقيل: إن المتوكل قال لابن أبي داود: أطمعتني في باطل، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضًا، ذلك لأن هذه الثروة تافهة لمن تولى الوزارة أربع عشرة سنة، وكان أهله أغنياء موسرين. وقضى ابن الزيات نحبه في التنور الذي قيل: إنه كان اتخذه أيام وزارته من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل، وهي قائمة مثل رأس المسالّ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال. وكان يقول لنفسه قبل موته بيومين أو ثلاثة: يا محمد بن عبد الملك لم تقنعك النعمة والدواب الفُره، والدار النظيفة، والكسوة الفاخرة، وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة، ذق ما عملت بنفسك. فكان يكرر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عن عتاب نفسه، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. وراح أعداؤه يصنعون عن لسانه أقوالًا وأشعارًا ربما لم يقلها، ويزورون ما يحاولون به إلقاء الغطاء على محاسنه الكثيرة.

نموذج من إنشائه:

لم يؤلف ابن الزيات كتابًا في موضوع خاص، صرف جميع ما أوتيه من موهبة البلاغة في رسائل الدولة، وذكروا أن له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة، ولم يعثر عليه، والمعقول أن يكون خلف مئات من الأوراق، والباقي اليوم من رسائله في دواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات، وله ديوان شعر رائق؛ ومن كتبه عهد الواثق على مكة بحضرة المعتصم، وهو: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، وتراث أبيك الأقدم، وجدك الأكرم، وركضة جبريل، وسقيا إسماعيل،

وجعفر عبد المطلب، وسقاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته»، وهذا من الإيجاز المعجب الذي تمليه قريحة اعتادت البديهة واعتادت الروية، وما أحلى قوله: «ركضة جبريل وسقيا إسماعيل»، وهي من التعابير التي يفترعها أمثاله من الكاتبين.

***

أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر، ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم، وفوَّض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم، فكتب: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، وليس في الوصول إلى الغرض مع مراعاة المكتوب إليه أوجز ولا ألطف من هذا السطر.

***

لما بُويع المتوكل أمر بالكتاب إلى الناس باعتمادهم على اللقب الذي لقب به، وكتب ذلك ابن الزيات: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر -أبقاكَ الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه- أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره، وفي كتبه إلى قضاته وكُتَّابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم، من سائر من تجرى المكاتبة بينه وبينه (من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين) فرأيك في العمل بذلك، وإعلامي بوصول كتابي إليك موفق إن شاء الله».

***

وكتب إلى الحسن بن وهب: يجب على المرءوس إذا تحاور به الرئيس حق مرتبته بعمله، وكان تفضيله إنما وقع له بخفته على القلب، ومحله من الأدب، أن يقابل ذلك بمثله، إن كان محاميًا على محله، وإلا فلا يؤمن عليه.

وكتب: إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أودهم، ورياضة أخلاقهم، وأن يميز بينهم فيقدم محسنهم، ويؤخر مسيئهم، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم.

***

وفصل له: إن من أعظم الحق حق الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحق، وحفظ تلك الحرمة، أن يراعى له حسب ما راعاه الله، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه.

***

وفصل له: إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدَّى كل إلى كل حقه، كان ذلك سببًا لتمام المعونة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الألفة.

***

فصل: ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين في نفسه خاصة، إلا اتصلت برعيته عامة، وشملت المسلمين كافة، وعظم بلاء الله عندهم فيها، ووجب عليهم شكره عليها، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم، وبتدبيره وذبه عن دينه حفظ حريمهم، وبحياطته حقن دمائهم وأمن سبيلهم، فأطال الله بقاء أمير المؤمنين منطوي القلب على مناصحته، مؤيدًا بالنصر، معززًا بالتمكين، موصول البقاء بالنعيم المقيم.

***

وله: الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته، منطوي القلب على مناصحته، مستحوذ السيف على عدوه، ثم وهب له الظفر، ودوخ له البلاد، وشرد به العدو، وخصه بشرف الفتوح، شرقًا وغربًا، وبرًّا وبحرًا.

***

وله: أفعال أمير المؤمنين عندنا معسولة كالأماني، متصلة كالأيام، ونحن نواتر الشكر لكريم فعله، ونواصل الدعاء له مواصلة برِّه، إنه الناهض بكلنا، والحامل لأعبائنا، والقائم بما ناب من حقوقنا.

***

وله: أما بعد؛ فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لائمة: إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك مُحِلّةُ النكر بك، وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة، والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، على حسب ما أقلت من عظيم العثرة، وما يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام.

***

والمظنون أن الكِتاب الذي كتب عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الإخشيد على بابك الخرمي، ونقله القلقشندي (صبح الأعشى ٦/ ٤٠٠) هو من كتابة محمد بن عبد الملك الزيات، لولا ما يحول دون هذا الظن من أثر التطويل فيه، وعلى كل فهو مما كتب تحت إشرافه لأن بابك قتل سنة (٢٢٣)، وابن الزيات تولى الوزارة في سنة (٢٢٠)، والكِتَاب بأسلوب ابن الزيات أشبه، لا تكلف في

ألفاظه وتراكيبه، ويستبعد أن لا يجول قلم ابن الزيات في هذا الموضوع الخطير، الذي أقام الخلافة وأقعدها؛ وما جاء فيه بعد التحميد: ولا يعلم أمير المؤمنين -مع كثرة أعداء الإسلام وتكنفهم إياه من أقطاره، والضغائن التي في قلوبهم على أهله، وما يترصدونه من العداوة، وينطوون عليه من المكايدة، إذ كان هو الظاهر عليهم، والآخذ منهم- عدوًّا كان أعظم بلية، ولا أجل خطبًا، ولا أشد كلبًا، ولا أبلغ مكايدة، ولا أرمى بمكروه، من هؤلاء الكفرة، الذين يغزوهم المسلمون، فيستعلون عليهم، ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم، ولا يقبلون لهم صلحًا، ولا يميلون معهم إلى موادعة، وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فَتَرات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر، وخُلسة من خلس الحرب، كان بها لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصًا لما تعجلوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر بعد مكدرًا لما وصل إليهم من فرحة.

فأما اللعين بابك وكفرته فإنهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون، وينالون أكثر مما يُنال منهم؛ ومنهم المنحرفون عن الموادعة، المتوحشون عن المراسلة، ومن أديلوا[1] من تتابع الدول، ولم يخافوا عاقبةً تدركهم، ولا دائرة تدور عليهم، وكان مما وطأ ذلك ومكَّنه لهم أنهم قوم ابتدءوا أمرهم على حال تشاغل السلطان، وتتابع من الفتن، واضطراب من الحبل؛ فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف، واستثارة ممن باراهم، فأجلوْا من حولهم لتخلُص البلاد لهم، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم، وتشتد المؤنة وتعظم الكلفة، ويقوَوْا في ذات أيديهم، فلم يتوافَ إليهم قواد السلطان، إلا وقد توافت إليهم القوة من كل جانب، فاستفحل أمرهم، وعظمت شوكتهم، واشتدت ضراوتهم، واستجمع لهم كيدهم، وكثر عددهم واعتدادهم، وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم، وتحقق في نفوسهم أن كل ما يَعدهم الكافر

(١) أدالنا الله من عدونا، من الدولة والإدالة: الغلبة.

ويُمنِّيهم أخذٌ باليد، وكان الذي بقي عندهم منه كالذي مضى، وبدون هذا ما يُخْتَدَع الأريب، ويستنزل العاقل، ويُعتقَل الفطن، فكيف بمن لا فكرة له، ولا روية عنده؟!

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حسد أهل النعم، ومنافستهم على ما في أيديهم، وتقطعهم حسراتٍ في إثر ما خُصوا به، وأنهم إن لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك، فإنهم يرون أنهم فيه سواء.

وفيه: فأعدَّ (أمير المؤمنين) من أمواله أخطرها، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب، وأنهضهم بالمعضلات، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه -صلوات الله عليهم- أحسنهم طاعة، وأشدهم نكاية، وأكثرهم عُدة؛ ثم أتبع الأموال بالأموال، والرجال بالرجال، من خاصة مواليه، وعدد غلمانه، وقبل ذلك ما اتكل عليه من صُنع الله عز وجل، ووجّه إليه من رِعيته؛ فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين؟ ألم يُكذِّب الله ظنونهم، ويشفِ صدور أوليائه منهم؟ يقتلونهم كيف شاءوا في كل موطن ومعترك، ما دامت عند أنفسهم مقاومة.

وفيه: فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم، سلطهم الله عليهم كيدٍ واحدة، يختطفونهم بسيوفهم، وينتظمونهم برماحهم؛ فلا يجدن ملجأ ولا مهربًا، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحُرَمهم، وصيروا الدار دارهم والمحلة محِلتهم، والأموال قسمًا بينهم، والأهل إماء وعبيدًا؛ وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء، وأعطاهم من الرحمة والثواب، وما أعد لأولئك من الخزي والعقاب، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتل فسلم من ذل الغلبة، ولا فيمن نجا فعاين من الحياة بعض العوض، ولا فيمن أُصيب، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بها سواه.

وجاء في خاتمته: فالحمد لله الذي أعز دينه، وأظهر حجته، ونصر أولياءه، وأهلك أعداءه، حمدًا يُقضى به الحق، وتتم به النعمة، وتتصل به الزيادة، والحمد لله الذي فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنه، وأنجح سعيه، وحاز له أجر هذا الفتح وذُخره وشرفه، وجعله خالصًا لتمامه وكماله، بأكمل الصُّنع وأحسن الكفاية.

***

كان ابن الزيات يقول: احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدو العاقل، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسيء كمن أساء وهو يظن أنه يحسن. ومن شعره:

لو كان يمنع حسن الوجه صاحبه ... من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عليم أبر الناس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد

ومنه:

ما لي إذا غبتُ لم أُذكر بصالحة ... وإن مرضتُ وطال السقم لم أُعد
ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه ... قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

ذكر ابن المدبر في الرسالة العذراء أنهم لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل: «أبقاك الله وأمتع بك» إلا إلى ذوي الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك، وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه، ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أحلتَ عما عهدتِ من أدبك ... أم نلت ملكًا فتهت في كتبك
أم هل ترى أن في التواضع للـ ... ـإخوان نقصًا عليك في حسبك
أتعبت كفيك في مكاتبتي ... حسبك مما يزيد في تعبك
إن جفاءً كتاب ذي أدب ... يكتب في صدره «وأمتع بك»

فكتب إليه ابن الزيات:

أنكـــرتَ شـــيئًا فلـــست فاعلـــه ... فلـــن تـــراه يُخَـــطُّ في كتبـــك
فـاعفُ فـدتك النفـوس عـن رجـل ... يعـــيش حتـــى المـــمات في أدبـــك
كيـــف أخـــون الإخـــاء يـــا أمـــلي ... وكـــل شيء أنـــال مـــن ســـببك
إن يـــك جهـــلًا أتـــاك مـــن قِـــبَلي ... فَعُـــدْ بفـــضل عـــليّ في أدبـــك

تعشق محمد جارية، فبيعت من رجل من أهل خراسان وأخرجها، فذهل عقله حتى خُشي عليه، ثم أنشأ يقول:

يا طـول سـاعات ليـل العاشـق الـدنف ... وطـول رعيتـه للـنجم في الـسدف[1]
مـاذا تُـواري ثيـابي مـن أخـي حُـرَقٍ ... كـــأنما الجـــسم منـــه دقـــة الألـــف
مـا قـال يـا أسـفي يعقـوب مـن كمـد ... إلا لطـول الـذي لاقـى مـن الأسـف
مـن سره أن يـرى ميـت الهـوى دنفًـا ... فليـستدل عَـلَى الزيـات وليقـف

وكان محمد بن عبد الملك يحب بعض جوارى القيان، ثم تنكر لها، فكتبت على خاتم لفظًا تعرَّض فيه بالعتاب، فبلغه ذلك، فكتب على خاتمه ضد ما كتبت، فبلغها، فمحت ما كان على خاتمها، وكتبت ضد ما كتب، فبلغه ذلك، فمحا ما كان على خاتمه، وكتب ضد ذلك في أبيات يقول فيها:

كتبـــت عـــلى فـــص لخاتمهـــا ... مـــن مـــلَّ مـــن أحبابـــه رقـــدا
فكتبـــت في فـــصي ليبلغهـــا ... مـــن نـــام لم يـــشعر بمـــن ســـهدا
فمحتـــه واكتبـــت ليبلغنـــي ... مـــا نـــام مَـــن يهـــوى ولا هجـــدا
فمحوتـــه ثـــم اكتبـــت أنـــا ... والله أول ميـــــت كمـــــدا
قالـــت يعارضـــني بخاتمـــه ... والله لا كلمتـــــه أبـــــدًا

(١) السدف -محركة-: الصبح وإقباله، وسواد الليل، كالدفة. والدنف -محركة-: المرض الملازم.

وقال:

أترحـــل والـــذي تهـــوى مقـــيم ... لعمـــرك إن ذا خطـــر جـــسيم
إذا مـــا كنـــت للحـــدثان عونًـــا ... عليـــك وللزمـــان فمـــن تلـــومُ

ومن شعره في العيادة:

ونعـــود ســـيدنا وســـيد غيرنـــا ... ليـــت التـــشكي كـــان بـــالعُوَّاد
لـــو كـــان يقبـــل فديـــةً لفديتـــه ... بالمـــصطفى مـــن طـــارقي وتـــلادي

وقال في عباس بن المأمون وقصته أيام عمورية:

حلفـــة مـــا حلفـــت لا تعـــبر اللُّـــ ... ـــكام مـــبرورة مـــن الأيـــمان
ورب حنـــث فيـــه النجـــاة وبـــر ... قـــد أحـــلَّ الفتـــى بـــدار هـــوان

وقال:

أبـــاح الـــدمع سرًّا لم أبحـــه ... فـــدمعي آفتـــي لا تظلمينـــي
فـــما ذنبـــي إذا كانـــت دمـــوعي ... تعـــين عـــليَّ أســـباب المنـــون
إذا ظـــن الجلـــيس بـــبعض مـــا بي ... يـــين لعينـــه وجـــه اليقـــين
ويرمـــي بـــالظنون إذا التقينـــا ... فتكـــشف لمحتـــي لـــبس الظنـــون

وله:

تمكنـــت مـــن قـــتلي فأزمعـــت قتلهـــا ... على غير عمد منك والروح تذهب
كعـــصفورة في كـــف طفـــل يـــسومها ... ورود حياض الموت والطفل يلعب

وله:

وعائـــب عـــابني بـــشيبي ... لم يغنـــدُ لمـــا ألمَّ وقتـــه
فقلـــت إذا عـــابني بـــشيبي ... يـــا عائـــب الـــشيب لا بَلَغْتـــه

ومن قصائده قصيدته التي أغرى فيها بإبراهيم بن المهدي في أيام المأمون، عند رضا المأمون عنه، وعدد فيها ما كان منه عند دعائه إلى نفسه، وأولها:

ألم تر أن الشيء للشيء علة ... يكون له كالنار تقدح بالزند

وقال في جارية يهواها اسمها عذر:

يا عذر زين باسمك العذر ... وأسا ولم يحسن بك الدهر
وهي التي قالت وقد جعلت ... تنسل من وجناتها الخمر
أكمد بدائك هل رأيت كذا ... بدر يلوح بخده البدر

ورأته هذه الجارية في ليلة أربع عشرة من الشهر فقال:

بدر بدا في ليلة البدر ... في ليلة الأربع والعشر
لذلك الشهر له شاهد ... لا ينقضي الدهر له شكري
أطلع بدرين وما عهدنا ... بأن نرى بدرين في شهر
وَيْلي من بدرين في ليلة ... كلاهما في صورة يسري

ومن هذه المقاطيع عرفنا أيضًا أن ابن الزيات كان رجل صبابة ودعابة، ورقة طبع وحاشية، وجميل إخاء ووفاء.